قضية

أدونيس وغرناطة وعمان

محمد سعيد مضيه

تشعَّبَ الحوارُ في صحافة عمّان الثّقافيّة حول أدونيس، وامتدّت جبهتُه على رقعة واسعة. وبذا وهنت المجابهةُ وتشتّتت في مناوشات معزولة هنا وهناك. طبيعي أن تحدث اختراقات حيث توجد الثّغرات في حجّة هذا الطّرف أو ذاك، ولكنّ القضيّة الأساس ـ حضور لقاء غرناطة ـ بقيت مغيَّبةً أو يلفّها ضبابٌ كثيف.

بدأت الحواريةُ بقرار اتّخذته لجنة الشّعر في مهرجان جرش الثّقافي إذْ وجهت الدّعوة إلى أدونيس لحضور المهرجان والمشاركة فيه. وهذا ما وجده الأمينُ العامّ للاتّحاد العام للأدباء والكتّاب العرب، الأستاذ فخري قعوار، تحدّياً للنّظام الأساسيّ للاتّحاد الّذي يحرم اللّقاء مع إسرائيليّين. وأصدر قعوار بياناً احتجّ فيه على توجيه الدّعوة وضمَّنه اتّهامات للشّاعر، منها تصريحات إلى صحيفة إسرائيليّة وتحريض على غزو العراق ثمّ حضور لقاء غرناطة والاجتماع بمثقّفين ومن ثَمَّ فتح باب التّطبيع الثّقافي مع العدو؛ وطالب البيان سحب الدّعوة ومنع أدونيس من دخول الأردن.

وهكذا اختلطتْ في هذا البيان قضايا مشكوك بها، وتفتقر إلى الإثبات، مع قضايا مصيريّة تواجه الثّقافة القوميّة في هذه المرحلة المصيريّة الّتي تداعت فيها جبهاتُ الاقتصاد والعسكر والسّياسة فباتت الثّقافة خطَّ الدّفاع الأخير عن الوجود الحضاري القومي.

وأثار بيان الأستاذ فخري قعوار ـ بما تضمنه من اتّهامات ـ جهات عديدة في الأردن، إذ تنشط «جمعيّةُ مناهضةِ الصّهيونيّة» (الّتي يرأسها المهندس ليث شبيلات نقيب المهندسين الأردنيّين). وتدعو الجمعيّة إلى مناهضة كلّ أشكال التّعامل مع الصّهيونيّة وكيانها بما في ذلك المفاوضات السّياسيّة. وأصدر المهندس شبيلات بياناً حمل مضمون بيان قعوار نفسه.

ووجّهت «اللّجنة الشّعبيّة الأردنيّة لمقاومة التّطبيق والإذعان» مذكّرةً إلى مدير عام مهرجان جرش. وتضم اللّجنة طيفاً من الأحزاب السّياسيّة يتراوح بين جبهة العمل الإسلامي وبين أحزاب اليسار الماركسي. لم تتضمّن المذكّرة طلباً بسحب دعوة أدونيس، إلاّ أنّها عبّرت عن استغرابها من الدّعوة. وركّزت المذكّرة على مخاطر لقاء غرناطة الّذي يشارك فيه أدونيس مع آخرين من المثقّفين العرب، إذْ يغيّب ممارسات إسرائيل الّتي غذّت ثقافة الحرب والعنصريّة وزادت من تعقيدات الصّراع في المنطقة،

بيان من الشاعر أدونيس

جاءنا من الشّاعر أدونيس البيان التّالي نَصّه:

«نشرت بعض الصّحف العربيّة، في الآونة الأخيرة، خلاصةً عن بيانٍ أصدره «اتّحاد الكتّاب العرب» من مقرّه الحاليّ في عَمّان، يزعم فيه أنّ أدونيس أدلى «بتصريحاتٍ لإحدى صحف العدوّ، وهي صحيفة يديعوت أحرونوت، متجاوزاً في ذلك صراعَ الأمّة مع العدوّ»، وأنّه كتب «في جريدة القدس، التي تصدر في لندن، مقالةً عبّر فيه (كذا) عن ضيقه، بسبب تلكّؤ الولايات المتّحدة الأميركيّة في شَنّ الحرب على العراق الشّقيق، وأنّ ما قامت به الولايات المتّحدة من تدمير وقتل وإبادة لأشقّائنا العراقيّين كان متأخّراً، وكان على (حامية حقوق الإنسان) في العالم، أي الولايات المتّحدة الأميركيّة، أن تَنقذ حقوق الإنسان العراقي بضربةٍ مبكرة، ومنذ أمدٍ بعيد». ويقول البيان أخيراً إن أدونيس «شاركَ مع كتّابٍ عربٍ آخرين في لقاء مع كتّاب إسرائيليّين في غرناطة... [و] هذا كلّه يتنافى مع توجّه الأدباء والكتّاب العرب نحو مقاومة التّطبيع الثّقافيّ مع العدوّ».

وتبياناً الحقيقة، واحتراماً لأصدقائها ـ أصدقائي، أُقدّم هذه الإيضاحات:

أوّلاً: ليس لي أيّ علم بتلك التّصريحات: لم أُعْطِ، إطلاقاً، أيّ حديث لجريدة يديعوت أحرونوت.

ثانياً: إنّ من يقرأ النّصّ الكامل للمقال المنشور في جريدة القدس، سيرى أنّه لا يدحض، فحسبُ، افتراءَ هذا «الاتّحاد» وإنّما يؤكّد أنّ من كتبَ بيانَه المشارَ إليه، لا يعرف حتّى أن يقرأ.

ثالثاً ـ يصوغ «اتّحادُ الكتاب العرب» كلامَه على مؤتمر غرناطة، بطريقةٍ تموّه وتُضلّل. وكانَ عليه، من باب الموضوعيّة وحدها، أن يكون دقيقاً:

أ ـ إنّ منظّمة اليونيسكو هي الّتي عقدت هذا المؤتمر، ورأسَهُ وأداره مديرُ المنظّمة، شخصياً. ولعلّ «الاتّحاد» يعرف أنّ الدّول العربيّة أعضاء في هذه المنظّمة إلى جانب إسرائيل، وأنّ المندوبين العرب يشاركون في اجتماعاته ونشاطاته، إلى جانب المندوب الإسرائيلي.

ب ـ لم يكن هذا المؤتمر لقاءً بين الكتّاب العرب والكتّاب الإسرائيليّين، وإنّما كان لقاءً دَوْليًّا حضره حوالي خمسين مدعوًّا من الكتّاب والمفكّرين والإعلاميّين من مختلف البلدان، للتأمّل في «السّلام وما بعده»، انسجاماً مع رسالة اليونيسكو.

وقد حضرَ المؤتمر حوالي عشرين عربيًّا، معظمهم من الفلسطينيّين، ومعظم هؤلاء من

كما يزيف حقيقة الثّقافة إذ يعزلها عن واقعها السّياسي والاقتصادي.

ولم تعجب هذه المواقف، كما يبدو، لجنة الشّعر في مهرجان جرش. فنشر عضوها الشّاعر طاهر رياض مقالاً حاداً تهجَّم فيه على أصحاب البيانيْن والمذكّرة. ويخلو المقال من روح المحاورة ويلفّ القضيّة الأساس بغيمة من غبار الإثارة ضدّ تشويه «شاعر مهما اختلفنا مع وجهات نظره أو اتّفقنا يبقى إنجازُه الأدبيُّ والفكريُّ الكبير أحدَ المعالم البارزة في نهضتنا الثّقافيّة المعاصر». فهل أكسب هذا الإنجازُ الأدبي صاحبَه الحصانةَ من النّقد أو العصمة من خطأ التّقدير؟ واستفظع المقال موقف الأحزاب حين حمَّلت أدونيس «كسر الحاجز النّفسي مع السّياسات العنصريّة... بل راحت في نشوة حماستها تطلق حكمها (النّقدي) على إبداع أدونيس الشّعري والثّقافي». وهذا الحكم النّقدي منقول عن أدباء ومثقّفين يعيبون على أدونيس تضحيته بجماهيريّة الشّعر بحثاً عن جماليّة فنيّة واستخفافه بقيمة التّواصل في الشّعر.

المقال لا يحمل أبسطَ مقوّمات الحوار الثّقافي. وهو إذ يعيب على الأحزاب أنّها «لم تجد ما يبرّر وجودها واستمرارها فطفقت تتحيّن الفرصَ لتبيع النّاس وطنيّات زائفةً في محاولة يائسة للتّنويه بأنّ لها دوراً وجَدْوى» يعلن بثقة غير مبرَّرة: «لم يبق سوى ثقافتنا وإبداعنا... نحمي بهما ثقة الأمّة بماضيها ومستقبلها غير هيّابين من أعداء الثّقافة العرب أو من هزال وتساقط ما يسمّى بالثّقافة الاسرائيليّة...». هذا الاعتداد يتغافل عن دور البيئة السّياسيّة والاقتصاديّة في جوهر الثّقافة ووظيفتها. فكما فرضت التبعيّةُ الاقتصاديّةُ طوال العقود الماضية قعوداً عن تملّك المنهجيّة العلميّة وأدواتها المعرفيّة، فإنّ التبعيّة الاقتصاديّة الّتي تهدّد بفرضها السّوقُ الشّرق أوسطيّة لن تكون محاورة في ميدان الثّقافة. وخلال قرن ونصف القرن لم يتوقّف الإبداع الثّقافي، إلا أن جزءاً ضئيلاً منه تغلغل في النّسيج الاجتماعي والوجدان الاجتماعي بسبب الثّقافة الّتي روّجتها الحرب النّفسيّة المترافقة مع الحروب العسكرية والاقتصاديّة والثّقافيّة.

وردّ رئيس رابطة الكتّاب الأردنيّين، الأستاذ مؤنس الرزّاز، بمقالة عبَّرَتْ عن موقف الرابطة، مشيراً إلى أن للحوار قواعد أخلاقيّة وديموقراطيّة... فالتّخوين والإرهاب الثّقافي وعدم احترام اجتهاد الآخرين والغوغائية العشوائية شملتْ معظمَ أنصار هذه الجهة ومعظم «شيعة» تلك. وتساءل الرزّاز لماذا يلجأ مثقّف عربي إلى محاورة صهيوني مغمور لا يؤمن بحق الفلسطينيّين بإقامة دولة ذات سيادة؟ واستذكر انفراد أدونيس بالدّعوة، في مؤتمر للمثقّفين العرب في صنعاء، إلى محاورة المثقّفين الإسرائيليّين... فردّ عليه الشّاعر محمود دوريش بقوله إنّه جرّب المحاورة وتبيّن له عقمُها.

وبعث أدونيس بياناً نشرته الصّحف الأردنيّة دفع التّهمَ الّتي حمّلها بيان قعوار

المقيمين في فلسطين.

ج ـ حضر الجلسة الافتتاحيّة للمؤتمر رئيس الدّولة الفلسطينيّة، الّذي يعترف به العربُ والعالم، ممثّلاً شرعيًّا للشّعب الفلسطيني.. وهو ما يعطي لحضور الكتّاب العرب مشروعيّةً، على مستوى الاجتهاد في الرّأي بالأقلّ؛ ويقتضي النّظرَ إلى هذا الحضور، بوصفه موقفاً جماعيّاً، لا بوصفه موقفاً فَرْديًّا، يُستفرد فيه أدونيس، وحده، ويُحمّل، وحده، مسؤولية الحضور، وإن كان لا يتنكّر لهذه المسؤوليّة الخاصّة به، وإنّما على العكس، يتبنّاها، ويدافع عنها.

د ـ أعجبُ كيف أنّ «اتّحاد الكتّاب العرب» الّذي يتّخذ لنفسه صفة «الحارس» لِـ «مصلحة الأمّة»، عَمّا قاله أدونيس في هذا المؤتمر. إذ قَلّما يتاح لعربيّ أن يقول ما قاله في مثل هذه اللّقاءات الدّوليّة. وأعجبُ كذلك، كيف أنّ هذا «الاتّحاد» «الحارس»، لا يتساءل عن سكوت الصّحافة الإسرائيلية عَمّا قاله أدونيس. إنّه قولٌ يوضح للرّأي العالميّ ـ الثّقافيّ، الموقفَ الإنسانيّ والحضاريّ الرّفيعَ الّذي يقفه العرب إزاء الآخر، وبخاصّة اليهوديّ، من جهة، وموقف إسرائيل العدوانيّ، الظّغيانيّ، غير الإنسانيّ، وغير الحضاريّ، من جهة ثانية.

ولا أريد هنا أن أكرّر ما قلته. فمن يحبّ الحقيقةَ، يمكنه أن يطّلع عليه في محاضر المؤتمر، أو أن يسأل العرب الّذي استمعوا إليه.

رابعاً ـ أكتفي بهذا الإيضاح الموجز، دون الدّخول في نقاش مع «اتّحاد الكتاب العرب». لا نقاش مع الافتراء، والحقد، والجَهْل.

خامساً ـ أودّ أخيراً أن أشكر الكتّاب والمفكّرين والإعلاميّين العرب الّذين رَذَلُوا بيان هذا «الاتّحاد»، واستنكروه، خصوصاً في الأردنّ، حيث صدر. إنّني أعتزّ بموقفهم هذا، لنبله ووعيه، لا من النّاحية الشّخصيّة وحدها، بل كذلك، وفي المقام الأوّل، من النّاحية الفكريّة ـ الثّقافيّة العامّة. فعلى الرّغم من الظّلاميّة، والضّغينة، وعقليّة الدّسّ والاتّهام، والغباء، والانحيازيّة الإيديولوجيّة الشّخصيّة، المسكينة والعمياء، ـ ممّا يسود الجانب الأكبر من حياتنا الثّقافيّة ـ أقول، على الرّغم من هذا كلّه، تظلّ هناك أصواتٌ شجاعةٌ، مضيئة، حرّة، تجاهر بانتصارها للحقّ، والحقيقة، وللإنسان وكرامته. وفي هذا شَرف الإنسان العربيّ، والثّقافة العربيّة، واستمرارٌ في إرساء الأسس الحيّة لمستقبلٍ ثقافيّ عربيّ آخر، وفي ترسيخ بُعْدِ الحريّة في تاريخنا، القديم والحديث.

←

ولكنّه تورّط في أحكام غير مقنعة. ذلك أنّ عضويّة إسرائيل في اليونيسكو مع دول عربيّة أخرى لا تضفي شرعيّة على لقاء غرناطة. وإذا اقتصر الإعلام عن اللقاء على الحدث دون مضمونه وجرى تغييب ما طرح فيه من أفكار، أفليس ذلك تأكيداً للغاية التي انطوى عليها اللّقاء ـ وهي التّرويج للّقاء كهدف لا كوسيلة؟ وما زالت اللّقاءات الّتي تحدث تباعاً تؤكّد الإذعان للمفاهيم والمقولات الصّهيونيّة والاستسلام لمطالب إسرائيل ولم تسفر عن معالجة جذور النّزاع العربي ـ الإسرائيلي.

ولا ينسجم مع مفهوم الثّقافة ومضمونها اختزالُ المواقف بنعوت النّبل والوعي والشّجاعة الفكريّة (التي يطلقها الطّرف الأوّل) ولا نعوت الظّلاميّة والضّغينة وعقليّة الدّس والغباء والانحيازيّة الايديولوجيّة الشّخصيّة المسكينة والعمياء (الّتي يطلقها الطّرف المضادّ). فهل المكانة الثّقافيّة تخوّل صاحبها إصدار المراسيم؟!

يقال إنّ أدونيس هو الكاسب من هذه الضّجّة. ربّما لن يستهويه مهرجان جرش وقد لا يستفزّه تحدّي رابطة الكتّاب على لسان رئيسها إذْ أكّد ضرورة «دعوة أدونيس إلى عمّان كي نجادله ونحاوره. وأنا أرغب في أن أعتقد أنّه يملك الشّجاعة الأدبيّة للمجيء إلى هنا والدّفاع عن قناعاته...». فما يشغله هو استثمار الهجوم على شخصه، وبالذّات بسبب حضور لقاء غرناطة، لدى نخب المثقّفين الأوروبيّين. وإذا حضر أدونيس ـ وهذا ما ينصح به المقدّرون لمكانته الإبداعيّة ـ فعليه أن يتزوّد بمسوّغات غير الّتي ضمّنها بيانه ليزكّي بها لقاء غرناطة. فمكانته الأدبيّة ومداخلته في اللّقاء لم تبدّلا من مضمون الرّسالة الّتي وجهها المؤتمر إلى المثقّفين الأوروبيّين ومثقّفي العالم: رسالة حياد الثّقافة بين طرفي الصّراع في فلسطين. ولطالما حاربتنا إسرائيل بشهادات ومواقف حملت أسماء لامعة في عالم الثّقافة والفكر استثمرتها في إحياء عقد الاضطهاد القديمة والدّفاع عن الجواسيس والمخربين باسم حقوق الإنسان وحرية التّعبير. وكم من نخب ثقافيّة تترفع عن القضايا الملموسة لشعوبها أو تنشغل بمواعظ أخلاقيّة ضد الديكتاتوريّة السّياسيّة أو العنف والجريمة أو المخدّرات أو الصّراعات العرقيّة أو المجاعات والحروب دون أن تتكفّل بالتّعمق في أسبابها الاقتصادية، وبالذّات النّشاطات اللاّإنسانيّة للاحتكارات الرأسماليّة العابرة الجنسيّة ـ هذه النّشاطات الّتي تحمل دعوات اللّيبراليّة الاقتصاديّة والخَصْخَصة وتضمر النّزعات المتوحّشة.

فالإنسانيّة المجرّدة ليست موقفاً ثقافيّاً ملتزماً مع قضايا الإنسان وهمومه ومعاناته. وحيث تحمل الثّورةُ العلميّة ـ التّكنولوجيّة المعاصرة طفرةً في إنتاج الخيرات الماديّة وتطلق دوّامات من المشاكل والآفات والكوارث الاجتماعيّة، تبذل الجهود المحمومة للتّستّر على هذا التّناقض الذّاتي للرأسمال من خلال مدارٍ فلسفيّة وأدبيّة وفنيّة تدّعي الحداثة وما بعد الحداثة وتعيد إنتاج التّغريب الثّقافي ملفوفاً بورقة المعاصرة الصّقيل.

وبعد، فإن التّطبيع الثّقافي في هذه المرحلة المصيريّة يتراوح بين الاستهانة بالعدو وبوسائله وأدواته لنشر الثّقافة الزّائفة، والمبالغة في قدرته لدرجة الدّعوة لرفع الراية البيضاء. ومقاومة التّطبيع لا تعدو العمل على كشف الحقيقة ونشرها من خلال تواصل الفكر مع الواقع ومع الممارسة العمليّة للتّغيير الإجتماعي مستخدماً أدوات البحث والتّحليل والتّركيب واختبار الفكر في الممارسة. ذلك أن مقاومة التّطبيع وتنمية الثّقافة القوميّة مفهومان مترادفان.

نص الكلمة التي ألقاها أدونيس في مؤتمر غرناطة

تنتمي إسرائيل، جغرافيّاً، إلى منطقة من العالم تقوم ثقافتها، أساسيّاً، على التّمازُج والتّنوّع، منذ السّومريين، والكنعانيّين، والفراعنة. إنّها ثقافةٌ تركيبيّة.

تَبنّت المسيحيّة هذا الاتّجاهَ، فكان لها بعدٌ ثقافيٌّ يَتجاوَزُ خُصوصيّتها الدّينيّة، بحَصْر المعنى. وجاءَ بعدها الإسلامُ فَحقّقَ الأمرَ نفسه: كان عالماً ثقافيّاً إلى جانب كونه عالماً دينيّاً.

السّؤال الّذي يجب أن يُطرحَ على إسرائيل في هذا الإطار، وبخاصّة في إطار «السّلام وما بعده» هو التّالي: هل ستُعطي إسرائيل لليهوديّة بعداً ثقافيّاً يتطابَقُ مع انتمائها الجغرافيّ، وما خصائص التّمازُج والتّنوّع في ثقافة المنطقة الّتي تنتمي إليها... فنرى فيها، مثلاً، زواجاً مُختلَطاً، وتعليماً مفتوحاً؛ ونرى فيها، مثلاً آخر، وزيراً مسيحيّاً أو مسلماً، لا بوصفه يُمثّل أقليّتَهُ، بل بوصفه يمثّل إسرائيلَ كلّها، كما كان الشّأن في التّاريخ العربي ـ الإسلامي، بالنّسبة إلى اليهوديّ والمسيحيّ، وكما هو الشّأنُ، حاليّاً، في المملكة المغربيّة؟

يَرْتبط هذا السّؤال، عمْقيّاً، بمسألتي السّلام والهويّة. فدونَ هذا التّمازج، سَيبقى السّلامُ، إذا حدثَ، قائماً بين هُويّاتٍ مُغلَقة ومتنافية. سيبقى سَطحيّاً، ومن خارج. وسوف يظلّ المكبوت التّاريخيّ في الذّاكرتين، العربيّة واليهوديّة، قويَّ الحضور، وفعّالاً. وتَتمثّلُ نَواةُ هاتين الذّاكرتين في قَبْليّاتٍ دينيّة تنطوي على نظرةٍ لا تُقرّ بالآخر، إلّا بوصفه غريباً، أو إلّا إذا كان مُسْتَتْبَعاً.

وفي هذا ما يجعل الهويّة، هويّةَ الذّات وهويّة الآخر، مُلْتَبِسة. ولا يحدث حوارٌ عميقٌ، أو سلامٌ حقيقيٌّ بين هويّتَيْن، لا ترى كلٌّ منهما إلى الأخرى، إلّا بوصفها ملتبسة. ولا تكتسب الذّات فرادتَها، إلّا وَجْهاً لوجه مع آخر تعترفُ بآخريّته وباختلافه. إلغاءُ الآخر هو إلغاءٌ للذّات.

هكذا يَسْتلزمُ السّلام، على المستوى الثّقافيّ، إعادةَ ابتكار الأفكار والمفهومات. حتّى الهويّة ذاتُها لا تعودُ، في هذا الإطار، مُعْطَاةً، وإنّما تصبح سؤالاً وبحثاً. تُصبح، بتعبيرٍ آخر، ابتكاراً متواصِلاً.